الحج

لغة في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور

محمد الدسوقي

الأستاذ بقسم الفقه والأصول

<00

لمادة « حجّ » لغة عدة معان، وإن كانت جميعها بوجه عام تدور حول معنى التوجه والقصد، فقد قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : الحاء والجيم أصول أربعة :

فالأول ، القصد، وكل قصد حج، ثم اختص بهذا الاسم : القصد إلى البيت الحرام، للنسك.

والحجيج ، الحاجّ ، قال الشاعر :

ذكرتك والحجيجُ لهم ضجيجُ
بمكة والقلوب لها وجَيبُ

ومن الباب المحجةَّ : وهي جادةّ الطريق.

ويقال : حججت فلاناً فحججته ، أي غلبته بالحجة.

والأصل الآخر : الحِجة : السَّنة ، قال الشاعر :

يَرضُن صِعاب الدُّر في كل حجة
ولو لم تكن أعْناقهن عَواطِلا

والأصل الثالث : الحجاج : وهو العظم المستدير حول العين.

والأصل الرابع : الحَجْحَجة : يقال : حملوا علينا ثم حَجْحَجُوا، أي عجزوا وكفوا، أو أحجموا ورجعوا.

وجاء في لسان العرب لابن منظور : الحج : القصد، حج إلينا فلان، أي قدم، وحجه يحجه حجاً، قصده، وحججت فلاناً واعتمدته، أي قصدته، ورجل محجوج، أي مقصود، وقد حجّ بنو فلان فلاناً، إذا أطالوا الاختلاف إليه، ثم تعورف استعماله في القصد إلى مكة للنسك، والحج إلى البيت خاصة.

والحُجَّة : البرهان، أو ما دُوفع به الخصم، والوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، قال الأزهري : إنما سميت حجة، لأنها تحج، أي تقصد، لأن القصد لها وإليها، أو بها يقصد الحق المطلوب.

واحتج بالشيء : اتخذه حجة.

وحجه يحجه حجاً : غلبه على حجته، ومنه حديث معاوية : فجعلت أحج خصمي، أي أغلبه بالحجة.

وحاجّة مُحاجة وحِجاجاً : نازعه الحجة .

والتحاجّ : التخاصم .

ووردت المادة في الكتاب العزيز بتلك المعاني اللغوية بالإضافة إلى المعنى الذي خصت به ، واشتهرت فيه .

وباستقراء الآيات التي ذكرت فيها مادة « حج » ومشتقاتها بالمعنى اللغوي يمكن القول بأنها تتناول المعاني التالية :

أولاً : المجادلة والمنازعة والمخاصمة ، وقد ورد هذا المعنى سبع عشرة مرة .

ثانياً : البينة والدليل والبرهان ، أو ما يحتج به الإنسان ولو كان غير مبين ، وقد ورد هذا المعنى ثلاث مرات .

ثالثاً : بمعنى السنين والأعوام ، وقد جاء مرة واحدة .

ويلاحظ أن هذه المادة تفسر في بعض الآيات بالمعنى الأول ، وقد تحتمل المعنى الثاني ، والعكس صحيح .

ودراسة هذه المعاني تقوم على تأويل الآيات في قصد ، وفق ترتيبها في المصحف ، مع محاولة الربط بين آيات كل معنى ، واستنباط ما قد تشتمل عليه من أحكام ، أو ترشد إليه من توجيهات ودلالات ...

* * * * *

أولاً : المجادلة والمنازعة

أومأت آنفاً إلى أن مادة « حج » في كتاب الله وردت بمعنى المجادلة والمنازعة والمخاصمة سبع عشرة مرة : أربع مرات في سورة البقرة : وست مرات في سورة آل عمران، ومرتين في الأنعام، ومرة في غافر، وثلاث مرات في الشورى، ومرة في الجاثية.

أ - في سورة البقرة :

آية البقرة الأولى التي وردت فيها مادة « حجَّ » بمعنى المجادلة والمنازعة هي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١).

سبقت هذه الآية بنحو خمسة وثلاثين آية تحدثت عن طرف من قصة اليهود مع موسى عليه السلام، وماانتهى إليه المطاف معهم من بيان أن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة - بعد هذا أخذ السياق القرآني يتحدث إلى جماعة المسلمين مشيراً إلى أن بني إسرائيل لا أمل في إيمانهم فهم قد طبعوا على الكيد والفتنة، وأن لهم أساليبهم الملتوية والخادعة في مقاومة الدعوة الخاتمة ... وجاءت هذه الآية لتعرض لبعض تلك الأساليب، فاليهود في المدينة كانوا قبل البعثة يعرفون أن نبياً سيبعث، وكانوا يطعمون في أن يكون هذا النبي منهم، فلما بعث من العرب دفعهم الحقد والحسد إلى محاربته وعدم الإيمان به على الرغم من علمهم بصدقه وصحة نبوته، ومن ثم نبه القرآن الكريم الجماعة المسلمة إلى هذا، فقال تعالى : ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

تبين هذه الآية أن من شيم اليهود كتمانَ الحقائق، وتحريفَ الكلم عن مواضعه، وهم لايفعلون ذلك عن جهل وعدم معرفة، وإنما عن إدراك وعلم، فهو الضلال المضاعف، والكفر المبين ...

بعد هذه الآية وردت آية المحاجة التي حددت بعض أساليب اليهود في المكر والكيد للدعوة الإسلامية ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ أي قالوا للمؤمنين آمنا بما تؤمنون

---

(١) الآية ٧٦.

(٢) الآية : ٧٥ في سورة البقرة.

به، وصدقنا أن محمداً رسول من عند الله، ويرى بعض المفسرين (١) أن اعتراف اليهود للمؤمنين بصدق محمد في دعوته، لا يعني أنهم أمام المؤمنين وفي نظرهم قد آمنوا مثلهم، وإنما ينصب هذا الاعتراف على الإيمان بأن محمداً بعث للعرب خاصة لا لسواهم. ولكن الآية في منطوقها عامة، وتدل بعمومها على أن اليهود كانوا ينافقون المؤمنين، ويبطنون غير ما يظهرون، ويقولون بألسنتهم بأن محمداً بعث للناس كافة وليس للعرب خاصة.

ولأن قول اليهود لا يعبر عن يقين صادق، وإنما هو نفاق ومراوغة وافتراء وتضليل قالت الآية بعد ذلك: ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي أن اليهود إذا انصرفوا عن المؤمنين، وصاروا في دورهم أو أماكنهم الخاصة حذر بعضهم بعضاً من أن يحدثوا العرب بما جاء في التوراة عن صفة محمد، وبما أخذه الله من الميثاق على اليهود من اتباع هذا النبي، حتى لا يتخذوا ذلك ذريعة لجدالهم ومحاجتهم بين يدي الله تبارك وتعالى.

وللمفسرين عدة آراء في تأويل قول الله تعالى: ﴿ بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فمنهم من قال: بما أمركم الله به من الإقرار بنبوة محمد، ومنهم من قال: بما أنزل عليكم في كتبكم، ومن بَعْث محمد (ﷺ)، ومنهم من ذهب إلى غير ذلك (٢) ولكن الدلالة اللغوية لكلمة فتَح وهي القضاء والحكم يرجح أن يكون المعنى أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم، ومن حكمه جل ثناؤه عليهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد (ﷺ)، وما جاء في التوراة عن هذا النبي.

ويذهب الإمام الطبري (٣) إلى أن المحاجة في الآية بمعنى الدليل والبرهان، وليست بمعنى المنازعة والمحاجة، وهي تحتمل هذا المعنى، بيد أن صيغة مادة المحاجة في هذه الآية يرجح أن تكون بمعنى المنازعة في الحجة.

وختمت الآية بقول تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى أن اليهود ينبغي عليهم أن يفكروا ويعقلوا عاقبة ما قد يقدمون عليه من إخبار المسلمين بما جاء في التوراة عن محمد ورسالته. ولكن هؤلاء اليهود بما يفعلون يغفلون عن أن الله يعلم سرهم وجهرهم، ومن ثم كانت

---

(١) أنظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٨٠ طـ : دار القرآن، بيروت.

(٢) أنظر الميزان في تفسير القرآن. للطباطبائي جـ ١ صـ ٢٠٤ طـ بيروت.

(٣) أنظر تفسير الطبري جـ ٢ صـ ٢٥٤. طـ دار المعارف، القاهرة.

الآية التي تلت آية المحاجة الأولى في سورة البقرة هي : ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فاليهود بنفاقهم باءوا بغضب من الله ، وخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين .

وأما آية البقرة الثانية (١) التي وردت فيها مادة « حج » بمعنى المجادلة والمنازعة فهي : ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ .

جاءت هذه الآية بعد عدة آيات تحدثت عن بعض مواقف أهل الكتاب من دعوة الإسلام التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام، فقد كان كل فريق من اليهود والنصارى يظن أنه على الحق، ولهذا يتجرأ في حماقة ليدعوا محمداً ومن آمن به فيكونوا من اليهود أو النصارى، ويرد عليهم القرآن الكريم مبيناً أن ما دعا إليه هذا النبي هو الحق وحده، لأنه دعوة كل الأنبياء، ودعوة الإيمان بالله الواحد الأحد، فمن آمن بما جاء به محمد فقد اهتدى، ومن كفر به فقد ضل وغوى، وكان من المعاندين الذين يُشَاقُّون الله ورسوله، وهؤلاء سيكفي الله نبيه بأسَهم وكيدَهم ...

إن هذه الآية تبين أن أهل الكتاب ومعهم المشركون كانوا لا يكفون عن الجدل والمماراة، ولتبين أيضاً فساد تلك المزاعم التي آمن بها اليهود والنصارى، وأن دفاعهم عنها من اللغو الباطل، لقد كانوا يفاخرون المسلمين بأن عقائدهم خير مما يدعوهم إليه محمد (ﷺ) ، لأنهم كما يدعون أبناء الله وأحباؤه، وترد الآية على أهل الكتاب مزاعمهم بتأكيد الحقيقة الخالدة، وهي أن الله رب الجميع، وأن كل امرىء مجزيّ بما قدم من عمل، وأنه سبحانه هو الذي يعلم الصالح من الطالح، والمخلص من المنافق ﴿قل : أتحاجوننا في الله﴾ أي قل لهم يا محمد أتجادلوننا وتجاذبوننا الحجة على دعواكم، ومعنى في الله، أي في دينه والقرب منه، وهو ربنا وربكم، فهو رب الجميع، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن له مخلصون، فما تفاخرون به لا معنى له ونحن أولى بالخير منكم، لأننا نخلص في طاعة الله، وفي هذا إيماء إلى أن أهل الكتاب ليسوا مخلصين فيما يقولون ويفعلون، فكيف يدعون أنهم أولى من غيرهم بالفضل والاتباع .

ويذهب بعض المفسرين (٢) إلى أن الاستفهام في ﴿أتحاجوننا﴾ للتعجب والتوبيخ،

---

(١) الآيـة : ١٣٩ .

(٢) أنظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور جـ١ صـ٧٤٥ طـ تونس .

وأن الذي حمل أهل الكتاب على المحاجة مع المؤمنين هو ما تضمنته بعثة محمد (ﷺ) من نسخ شريعة اليهود والنصارى، وأن المؤمنين بهذا النبي الخاتم خير أمة أخرجت للناس فهي محاجة مبعثها الحسد، والاعتقاد الباطل بأن الله اختص أهل الكتاب بفضله دون سواهم.

وأما آية البقرة الثالثة (١) فهي قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

وردت هذه الآية بعد عدة آيات تحدثت عن تحويل القبلة وموقف أهل الكتاب ومشركي العربي من هذا، وذلك أن المسلمين بعد الهجرة كانوا يصلون قبَل بيت المقدس، وكانوا من قبل في مكة يصلون قبَل الكعبة، ومكثوا في المدينة يصلون إلَى قبلتهم في الشام ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم نزل تحويل القبلة، والتوجه إلى بيت الله الحرام مرة ثانية، واهتبلها أهل الكتاب وبخاصة اليهود ومعهم المشركون فرصة للافتراء وإذاعة البلبلة، فقد زعموا أن محمداً لوكان نبياً حقاً لما ترك التوجه إلى بيت المقدس إلى الكعبة، لأنه إن كان التوجه إلى بيت المقدس صحيحاً فإن التوجه إلى غيره ضلال، وإنحراف، وإن كان العكس فلأن الصلاة إلى بيت المقدس كانت إلى غير قبلة مفروضة، ولا يفعل هذا نبيّ.

وأهل الكتاب ومن معهم فيما يدعون مضللون، فمحمد (ﷺ) مبلغ عن ربه، ولا ينطق عن الهوى، ومن ثم فنَّد القرآن الكريم تلك المزاعم الفاسدة، وعَدَّ القائلين بها سفهاء، لتطاولهم وافترائهم وعدم إيمانهم برسالة خاتم الأنبياء.

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

---

(١) الآيــــة : ١٥٠.

يَعۡمَلُونَ ﴾(١) .

فهذه الآيات تشير إلى جملة من الحقائق في موضوع تحويل القبلة يمكن إجمالها فيما يلي : -

أولاً : إن الله تبارك وتعالى هو مالك الملك ، وبيده الأمر كله وهذا يعني أن على المؤمنين الطاعة والاستجابة دون اعتراض أو مناقشة ، وأن الأماكن في ذاتها لا فضل لها ، وإنما تكتسب الفضل والشرف من أمر الله بالتوجه إليها ، والتعبد فيها ...

ثانياً : إن العرب في جاهليتهم كانوا يقدسون الكعبة ، ويحجون إليها ويطوفون حولها ، فلما أخرجهم الإسلام من الظلمات إلى النور ، وأمروا بالصلاة قبل بيت المقدس كان هذا الأمر ابتلاء لإيمانهم ، فإذا كانوا قد أخلصوا لله الأفئدة والضمائر والمشاعر فلن يكون في تغيير القبلة أثر في يقينهم ، وإذا كان منهم من ظلت رواسب الجاهلية تعيش في وجدانه ، وتتغلغل في يقينه ، وكان تعظيمه الكعبة في الإسلام امتداداً لتعظيمه إياها في الجاهلية فإن هؤلاء سينقلبون على أعقابهم ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾ .

ثالثاً : إن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس ، فقد اختصها الله بالفرائض والتشريعات التي صححت المفاهيم والتصورات ، وكفلت للبشرية حياة إنسانية كريمة ، وقد افترض الله على هذه الأمة مسئولية الدعوة إلى الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي من ثم أمة وسط تشهد على الناس ، فتكون لها القيادة عليهم ، والحكم بينهم بما أنزل الله .

رابعاً : إن الذي يعرف الحق ثم يكابر فيه ويتطاول عليه ، ويكيد له سفيه وهكذا كان أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود ، يعلمون أن ما جاء به محمد هو الحق الذي لا متراء فيه ، وأن أمر تحويل القبلة وحي يوحى ، وليس رأياً أو اجتهاداً ، ولكنهم مع هذا لم يؤمنوا بما دعاهم إليه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأخذوا ينفثون سمومهم وأكاذيبهم يريدون بذلك اطفاء نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) الآية ١٤٢ - ١٤٤ في سورة البقرة .

ويلاحظ أن الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام ذكر أكثر من مرة في تلك الآيات ومنها الآية التي وردت فيها مادة « حج » والقرآن الكريم كتاب أحكمت آياته لا يعرف تكراراً لا يقدم جديداً من المعاني، ويتجلى هذا الجديد في ذكر الأمر بالتوجه إلى البيت خمس مرات إما للتأكيد على وجوب الامتثال في طواعية تامة لاستقبال الكعبة بعد أن نسخ حكم استقبال بيت المقدس (١) ، وإما أن هذا التكرار ينطوي على بعض الفوائد الفقهية التي تتعلق بكيفية التوجه والاستقبال في مختلف الحالات، منها : أن من عاين الكعبة مشاهدة أو حساً عليه أن يتوجه نحوها بالذات، ومنها : أن من كان في مكة لكنه لم يشاهد البيت فعليه أن يستقبل المسجد الحرام، ومنها أن من كان خارج مكة من مختلف البلدان فعليه أن يتوجه في قبلته نحو مكة، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله (ﷺ) قال : «البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي» .

ومنها : إذا سافر المسلم وأراد أن يقوم للصلاة فعليه أن يتوجه نحو القبلة أول دخوله الصلاة حين التحريم، ولا جناح عليه بعد ذلك إذا ما اتجهت به السفينة أو الطائرة، أو وسيلة النقل أياً كانت نحو أية جهة أخرى مغايرة (٢) .

وهذا التأكيد على وجوب التوجه إلى الكعبة، أو مراعاة مختلف أحوال المصلين فيه إلى جانب هذا رد على مزاعم أهل الكتاب ومحاولاتهم التهويش بين المؤمنين ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي أن ما جاءكم من عند الله في أمر تحويل القبلة هو الحق الذي لا امتراء فيه، فلا حجة لأحد عليكم أي لا مجال لمخاصمة ومجادلة ومحاجة في هذا الأمر، ولا يجادلكم فيه إلا الظالمون الذين ينكرون ما يعرفون، ولهذا كان جدالهم معكم لا وزن له فهو داحض، لأنه قائم على فساد في التفكير وضلال في اليقين، وجحود في الحق، فلا تعبأوا بهم ولا تخشوهم، فالخشية لله وحده ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ أي أن تحويل القبلة من تمام النعمة، واسباغ الفضل ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ولعلكم تستمسكون بهذه النعمة، وتحافظون على هذا الفضل، وتهتدون في كل أحوالكم على طريق الخير، ذلك الطريق الذي ضل عنه غيركم، وكنتم بسلوكه أشرف الأمم وأفضلها (٣) .

---

(١) أنظر تفسير سورة البقرة للدكتور أمير عبد العزيز صـ ٢٤٠ . طـ. دار الفرقان، عمان.

(٢) أنظر : المرجع السابق صـ ٢٤٠ .

(٣) أنظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ١٤١ .

وآية البقرة الرابعة (١) التي وردت فيها مادة « حج » هي قول الله تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

موضوع المحاجة في هذه الآية بين نبي الله إبراهيم عليه السلام وملك آتاه الله سلطاناً وملكاً واسعاً، فما شكر ربه على ما أنعم عليه، وإنما دفعه الغرور والتجبر والطغيان إلى أن يزعم لنفسه منزلة الإله المعبود، وذكر هذه المحاجة في الكتاب العزيز فيها إشارة إلى أن الصراع بين الحق والباطل قديم، وسيظل إلى يوم الدين، وأن كل الأنبياء واجهوا عتاة بغاة نسوا أنهم بشر، وتطاولوا على رسل الله، وقاوموا دعوات الإصلاح والخير، ومنهم من تجاوز ذلك إلى إدعاء صفة الألوهية كفرعون وهذا الملك الذي حاج خليل الرحمن في ربه، فما عليك يا محمد من محاجة قومك وما يفيضون فيه من أباطيل وافتراءات، فلست بدعاً من الرسل، والحق الذي بعثت به سيعلو، ويبوء الباطل بالخزي والخسران.

ويذكر بعض المفسرين والمؤرخين أن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه، أي جادله في الله جاحداً إياه لفرط غروره وكبريائه هو نمروذ ملك بابل، وروى أنه من ذرية سام بن نوح، بل حفيد من أحفاده (٢) ، وهذا أمر لا يعنينا كثيراً، وإنما الذي احتفل به هو الموقف الذي يمثل الضلال في أقبح صوره، فقد ذهب الملك في إثبات دعواه إلى أنه يحيي ويميت، وهو لا يقصد بذلك أنه يملك خلق الحياة وإنهاءها، وإنما يريد أنه يعفو عمن وجب عليه القتل فذلك إحياء له، فإذا قتله فقد أماته بمشيئته وإرادته.

وهذه الحجة عقيمة وتدل على أن هذا الملك لا يعرف المنطق والبرهان إلى ذهنه سبيلاً، ومن ثم كان الاستفهام في أول الآية : ألم تر ... للتعجب من هذه المحاجة وغباوة صاحبها وتكبره وعناده (٣).

ولم يشأ إبراهيم أن يناقش الملك في فساد حجته، لأن مثله لا يعي أصول الجدل، ومنطق الحوار، وإنما طلب منه أمراً بناه على تلك الحجة الفاسدة ليقطع عليه كل سبل المحاورة الباطلة، ويفرض عليه الهزيمة المنكرة، فقال له : إن من شأن من يقدر على إحياء

---

(١) الآيـــة : ٢٥٨.

(٢) أنظر تفسير سورة البقرة للدكتور أمير عبد العزيز صـ ٤٥٥.

(٣) أنظر تفسير المنار جـ ٣ صـ ٤٦، طـ : المنار وفي ظلال القرآن جـ ٣ صـ ٣٨، طـ دار الشروق - القاهرة.

الأموات وإماتة الأحياء أن يقدر على الإتيان بالشمس من المشرق فإن كنت قادراً على ذلك فأت بها من المغرب، وهنا يتبدد الزيف والمراوغة، وينكشف التمحل والاصطناع ويستبين الضعف الذي يركب طبيعة الانسان (١) ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ أي أدركته الحيرة، وأخذه الحصر من نصوع الحجة وسطوعها فلم يحر جواباً.

وجاء ختام الآية ليؤكد أن الله لا يجعل لمثل هؤلاء المشركين حجة أو برهاناً يدعم مزاعمهم، فهذه المزاعم دائماً لا تنهض إلا على براهين مكذوبة وداحضة.

وفسر صاحب المنار (٢) الظلم في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بأن المراد به الإعراض عن النور الإلهي، وهو نور العقل الذي يسير به المرء في طريق الدين، فمن أظلم نفسه بإطفاء هذا المصباح فسار يتخبط في الظلمات فإنه لا يهتدي في سيره إلى الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة، بل يضل عنه حتى يهلك دون الغاية ...

وهذا التفسير يلتقي مع منهج الإمام محمد عبده في التأويل بما يتلاءم مع تقدير العقل، والحض على التفكير والنظر، وإن كان معنى الظلم في القرآن يشمل كل مجاوزة فيما بين الإنسان وربه بالكفر والشرك والنفاق، وفيما بين الإنسان وغيره من الناس بالتعدي وغمط الحقوق، وفيما بين الإنسان ونفسه بحملها على ما لا ينبغي أن يحملها عليه، ولعل هذه المجاوزة كلها جاءت نتيجة لتعطيل نعمة العقل، أو انحرافها عن سواء السبيل ...

ب - في سورة آل عمران:

تتناول الآيات التي وردت في سورة آل عمران، وذكرت فيها مادة « حج » بمعنى المخاصمة والمنازعة وتجاذب الحجة - تتناول بوجه عام - موقف أهل الكتاب ومعهم المشركون من الإيمان بما بعث به محمد (ﷺ)، وتفنيد مزاعمهم وشبههم الباطلة فيما يرونه في شأن إبراهيم وعيسى عليهما السلام، مع الإشارة - بوجه خاص - إلى مكر اليهود وخداعهم ومحاولتهم أن يفتنوا المؤمنين أو يبلبلوا أفكارهم، لينفضوا عن محمد ورسالته.

والآية الأولى (٣) من تلك الآيات هي قول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

---

(١) أنظر تفسير سورة البقرة صـ ٤٥٦.

(٢) جـ ٣ صـ ٤٧.

(٣) الآية: ٢٠.

وتأويل هذه الآية يرتبط بالآية التي قبلها وهي قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ تقرر هذه الآية أن الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وأرسل به كل الأنبياء هو الإسلام، أي الطاعة والاتباع وتحكيم كتاب الله في كل شأن من شئون الحياة، كما تقرر الآية أن الذين أوتوا الكتاب لم يختلفوا في الإيمان بوحدانية الله، وكذلك الإيمان بكل رسل الله عن جهل بحقيقة الأمر، فقد جاءهم من الله علم قاطع بذلك، ولكنهم لبغي رؤسائهم في الدين والدنيا عدلوا عما جاءهم فاختلفوا شيعاً ومذاهب يقتتلون ويكفر بعضهم بعضاً.

وتحذر الآية في ختامها هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وخالفوا أمر ربهم، من جحدهم آيات الله الدالة على وحدانيته، وعلى وَحْدة دينه وعلى وجوب الاعتصام به وعدم التفريق بين أحد من رسله، فهو سبحانه سريع الحساب سيجازي كل من كذب وعاند، وبغى وخالف كتابه وكفر بآياته.

ثم تأتي الآية التي وردت فيها مادة « حج » تخاطب الرسول (ﷺ) ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي جادلوك في التوحيد، وفي نبوتك، وتلمسوا في جدالهم كل الأباطيل والمزاعم الفاسدة، فلا تلق لهم بالاً، فهم معاندون مبطلون لا يقصدون من وراء الحجاج والجدال نصرة حق، وتفنيد باطل، وإنما هم مشاغبون مشاكسون، يعرفون الحق وينكرونه (١)، ويوقنون بأنهم على ضلال ولكنهم يكابرون، وقل لهم إني أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، أي أنك ومن معك أخلصتم لله الطاعة والعبادة، وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء المجادلين لا يعرفون في طاعتهم الإخلاص، والإيمان بالله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ولأن هؤلاء المجادلين ومن معهم من المشركين قد آثروا الضلالة على الهدى، فإن على محمد (ﷺ)، بحكم رسالته ومهمته أن يدعو هؤلاء إلى الإسلام ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ ﴾ والاستفهام هنا للتقرير أي أسلموا، وقيل إنه للتقريع والتهديد بسبب العصيان، فإن أطاعوا وأسلموا فقد اهتدوا؛ أي سلكوا طريق الفوز والنجاة، وإن أبوا وأعرضوا فقد أديت ما عليك، وهو البلاغ وإلى الله مرجعهم وعليه حسابهم، وهو بهم خبير بصير، يعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة.

---

(١) أنظر تفسير المنار جـ٣ صـ ٢٦٠ .

ويعلق الإمام ابن كثير (١) على هذه الآية بقوله : « وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية أو حديث ... » .

وما قاله ابن كثير حق لا مراء فيه، فأمر الرسول بأن يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى والأميين (٢) من المشركين أوضح برهان على أن الدعوة الإسلامية ليست موجهة لقوم مخصوصين، كما كان الحال بالنسبة للأنبياء الذين خلوا من قبل محمد (ﷺ)، وإنما هي دعوة عامة خاتمة جاءت للناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ...

وأما الآية الثانية (٣) فهي قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ .

يشير إلى موضوع المحاجة في هذه الآية الضمير في « فيه » وهو يحتمل أن يعود إلى أحد أمرين :

١ - إلى عيسى عليه السلام، فقد ورد ذكره في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤) .

٢ - الحق الذي بعث به محمد (ﷺ) ، وقد ورد في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (٥) .

والراجح عوْد الضمير إلى عيسى، فالآيات التي سبقت هذه الآية التي وردت فيها المحاجة، وتبلغ نحو ثلاثين آية تتحدث عن مريم والمسيح وبعض معجزاته، وموقف قومه منه، وهي بهذا ترد على دعاوى النصارى في شأن عيسى عليه السلام.

وأما الحق الذي ورد في الآية فيراد به القول الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه في عيسى وبشريته.

وتطلب آية المحاجة من محمد (ﷺ) إذا جادله المجادلون في أمر عيسى بعد الذي جاءه من العلم، وهو الآيات البينات الناطقة بالحق والتي تبين في جلاء بشرية هذا الرسول، وأن مثله في الخلق كمثل آدم فما عليه إلا أن يطلب من هؤلاء الذين لا يصدقون

---

(١) أنظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٢٧٣ .
(٢) أي الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وغيرهم.
(٣) الآية رقم : ٦١ .
(٤) الآية : ٥٩ في سورة آل عمران.
(٥) الآية : ٦٠ في سورة آل عمران.

بما جاءهم به ويصرون على الافتراء والزعم بأن عيسى ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - يطلب منهم أن يدعوا نساءهم ورجالهم وأبناءهم، وأن يلتقوا مع المسلمين رجالاً ونساء، وأبناء، ليبتهل الجميع على المكذبين والمفترين، والمحرفين للكلم عن مواضعه.

والابتهال، أصله الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره، يقال : ابتهل الرجل : دعا وتضرع، أو دعا بإخلاص واجتهاد، وابتهل القوم : تلاعنوا.

ولكن القوم تخوفوا مما طُلب منهم، ولم يستجيبوا له، وما ذلك إلا لأنهم يدركون أن محاجتهم لا تنهض على دليل صادق أو حجة صحيحة، وإنما هي المكابرة والمراوغة والحسد والكراهية ...

وتذكر الروايات أن هذه الآية تتحدث عن قصة أهل نجران (١) ، فقد كتب إليهم رسول الله (ﷺ) كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام، فلما قرأوه بعثوا وفداً إلى رسول الله (ﷺ)، فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الإسلام فامتنعوا، فقال : إن أنكرتم ما أقول فَهَلُم أُباهلكم، وهموا بالموافقة على المباهلة، ولكن كبيراً من الوفد حذر من مغبة هذه المباهلة وقالَ : فوالله لئن كان نبياً فَلاعَنَنَا لا نفلح نحن ولا عَقبُنا من بعدنا، ويروى أن رسول الله (ﷺ) قال : « لقد أتاني البشرى بهلكة آل نجران لو تموا على الملاعنة ».

ورضي أهل نجران بحكم رسول الله (ﷺ) عليهم بعد أن تخوفوا من الملاعنة، وأبوا الإسلام، وظلوا على نصرانيتهم، فصالحهم وضرب عليهم الجزية، وكانوا أول من أداها إلى رسول الله (ﷺ)، وقد بعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وقال : لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة من الجراح (٢).

وجاءت الآية التي وردت بعد آية المحاجة في شأن عيسى عليه السلام لتؤكد أن ما قصه الله على محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد، وأن من أعرض عنه إلى غيره، فهو مفسد، لأنه عدل عن الحق إلى الباطل، والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء (٣) ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين** ﴾.

وفي آية المباهلة إشارة إلى معنى يتعلق بمكانة المرأة في الإسلام، فهي شقيقة الرجل،

---

(١) نجران موضع في جنوب المملكة السعودية للشرق من اليمن، وكان أهل نجران يدينون بالنصرانية.

(٢) أنظر : عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري لصديق بن حسن القنوجي جـ ٥ صـ ٣٣٢، طـ. قطر.

(٣) أنظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٢٨٩.

ومن ثم كانت مثله في المسئولية في كل الشئون العامة للأمة (١)، فدعوتها للمشاركة في المباهلة دليل على أنها مسئولة عن الدفاع عن الحق، والإسهام مع الرجل في مقاومة الباطل.

وفي الآية أيضاً إشارة إلى أن المؤمن إذا صح إيمانه، وصدق يقينه، فلا يخشى إلا خالقه، ولذا يقف أمام الباطل في شجاعة وثقة، يرد افتراءه بكل وسيلة، ويكشف زيف ما ينادي به أو يدعو إليه بكل حجة.

وفي آيتين متتابعتين في سورة آل عمران وردت مادة « حج » بذلك المعنى ثلاث مرات، والآيتان هما (٢) : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

وموضوع المحاجة والجدل في هاتين الآيتين يتعلق بإبراهيم عليه السلام، وذلك أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله (ﷺ) فتنازعوا في إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلا يهودياً، وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانياً، فنزلت الآيات تبين أن هذا الجدل أو الزعم لا أساس له، فما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً. كيف يكون على دين نزل بعده، إن هذه دعوى فاسدة لا حجة لها، ولا يذهب إليها عاقل، فالعقل يمنع من الإقامة على دعوى لا دليل عليها، وأهل الكتاب حين يدعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً لا يملكون على ما يقولون حجة، فهم من ثم لا يعقلون، أي لا يعقلون فساد ما يدعون، أو أنهم بما يذهبون إليه كأنهم حرموا نعمة العقل فهم كالأنعام أو أضل سبيلاً.

وتنكر الآية الثانية من الآيتين على أهل الكتاب جدالهم فيما لا علم لهم به، فهم إذا كانوا قد جادلوا فيما لهم به علم، فليس لهم أن يحاجوا فيما لا يقفون عليه، أو يحيطون به.

وهذا الذي جادلوا فيه وهم يجهلونه هو عقيدة إبراهيم عليه السلام، فما كانت اليهودية والنصرانية إلا من بعده، فكيف يكون من اليهود أو النصارى، إنه قول فاسد، بل افتراء مبين، وإفك عظيم.

---

(١) أنظر تفسير المنار جـ٣ صـ٣٢٣.

(٢) الآيتان : ٦٥، ٦٦.

وقد اختلف المفسرون في محاجة أهل الكتاب فيما لهم به علم، فمنهم من رأى أن هذه المحاجة خاصة بإبراهيم، وأن جدالهم فيه على علم في زعمهم (١)، أو أن علمهم لا يتجاوز معرفتهم به لوجود اسمه في التوراة والإنجيل (٢)، بيد أنهم يجهلون دينه وعقيدته، ومع هذا جادلوا فيه، فالآية تنكر عليهم هذا الجدل، لأنه لا برهان عليه، لأن من يجهل أمراً، لا يستطيع أن يبدي فيه رأياً، فالحكم على الأشياء فرع عن تصورها ومعرفتها.

ومن المفسرين من ذهب إلى أن جدال أهل الكتاب فيما لهم به علم هو جدالهم في شأن عيسى (٣) عليه السلام، وأن علمهم به لم يمنع من خطأهم في الحكم عليه، إذ غلا بعضهم في الإفراط فقال عنه: إنه إله ومنهم من غلا في التفريط فقال: إنه كذاب، فإذا كان شأن أهل الكتاب هكذا مع ما لهم به علم، فكيف يحاجون في إبراهيم ولا علم لهم به، ويزعمون أنه كان يهودياً أو نصرانياً، فهذه المحاجة لون من المراء، أو الجدل لذات الجدل، ومن كان هذا شأنه في الجدال فهو غير جدير بالثقة فيما يقول، بل غير جدير بالاستماع إليه أصلاً.

ولعل هذا الرأي الذي يذهب إلى أن جدال أهل الكتاب فيما لهم به علم هو جدالهم في شأن عيسى أرجح، لأن سياق الآيات يقوي هذا، وأن جدالهم فيما لا علم لهم به هو جدالهم في شأن إبراهيم، وقد بينت الآيات أن هذا جدال لا ينبغي الاستماع إليه، لأنه قائم على غير أساس علمي أو عقلي، وأن الذين لجأوا إليه لا يعقلون، كذلك بينت الآيات أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وإذا كان نفي الشرك عن خليل الرحمن متضمناً في وصفه بأنه كان حنيفاً، أي مخلصاً أسلم لأمر الله، فإن هذا النفي يشير إلى أن اليهود والنصارى الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة مشركون، ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً، كما يشير إلى إبطال دعوى المشركين من قريش أنهم على دين إبراهيم، فلو كانوا حقاً كما يدعون ما تخذوا الأصنام والأوثان آلهة من دون الله، ولآمنوا بدعوة محمد (ﷺ)، فهي دعوة إبراهيم عليه السلام، كذلك يشير هذا النفي إلى أن الإسلام شيء، والشرك شيء آخر، وأنه لا التقاء بينهما بحال من الأحوال (٤).

---

(١) أنظر المحرر الوجيز جـ٣ صـ١٦٠، ط. قطر.

(٢) أنظر مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي جـ٣ صـ١٠٩ ط. بيروت.

(٣) أنظر تفسير المنار جـ٣ صـ٣٢٧.

(٤) أنظر في ظلال القرآن جـ٣ صـ٦٠٩.

وفضلاً عما تشير إليه الآيات من المعاني التي ألمحت إليها فإنها تومىء أيضاً إلى أن الجدال والمحاجة في الإسلام يقوم على انتهاج الأسلوب العلمي الذي يصل إلى النتائج من مقدمات منطقية وأدلة برهانية، ولهذا يرفض كل الرفض أسلوب المغالطة والمكابرة والجدل لذات الجدل، والإسلام من ثم يحض على النظر العقلي الذي يتوخى الحق، ويسلك الطريق الصحيح إليه، طريق المعرفة والمنهج العلمي وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(١) .

والآية الخامسة (٢) التي وردت في سورة آل عمران وذكرت فيها مادة « حج » هي قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وتأويل هذه الآية يرتبط بالآية التي وردت قبلها وهي قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقد روى في سبب نزول هاتين الآيتين أن اثني عشر من أحبار يهود خيبر تواطأوا، وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد وجه النهار، أي أول النهار باللسان، دون الاعتقاد، واكفروا به آخر النهار، وقولوا إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماؤنا فوجدنا محمداً ليس نبياً، وظهر لنا بطلان دينه وكذبه فيما يدعونا إليه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه فيه، وقالوا إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم (٣) .

وهذا الأسلوب اليهودي، أسلوب التلبيس والتشكيك والخداع والنفاق مرده إلى الكراهية والحقد، فهم ينكرون بألسنتهم بعثة نبي من العرب، ولا يصرحون بما يعرفون مكابرة وعناداً، ثم يزيدون على هذا ذلك السلوك الذي يقوم على الكذب والادعاء الباطل، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٤).

وأما قوله تعالى : **﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾** فلا خلاف (٥) بين أهل التأويل

---

(١) الآية : ٣٦ في سورة الإسراء.

(٢) الآية : ٧٣.

(٣) أنظر مجمع البيان في تفسير القرآن جـ٣ ص ١١٥ .

(٤) الآية : ٣٢ في سورة التوبة .

(٥) أنظر المحرر الوجيز جـ٣ صـ١٦٩ .

أنه من كلا م الطائفة، ولكن اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم** ﴾ فمنهم من قال إنه من كلام الطائفة لأتباعهم، ومنهم قال غير ذلك، وجاء قول الله تعالى : ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ اعتراض بين الكلامين، ومعنى الآية على القول الذي يرى أن قوله تعالى : أن يؤتي أحد ... من كلام الطائفة لا تصدقوا تصديقاً صحيحاً، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم حتى لا يؤتي أحد مثل ما أوتيتم من النبوة والعلم والمعرفة، وحتى لا يتخذ المسلمون اعترافكم بصدق محمد سبيلاً للمحاجة عند ربكم، واليهود بهذا السلوك الذي هو ثمرة الحسد والنفاق والكفر كأنهم يرون أن الحق لا يؤاخذهم إلا بحجة ما يقولون، وإن خالف ما يعتقدون، وهذا وهم يعبر عن فساد في العقيدة، وضلال في اليقين ...

ومعنى الجملة الاعتراضية وفقاً لذلك التأويل أن الله هو الذي يهدي قلوب المؤمنين، وأن كتمان اليهود ما بأيديهم من صفة محمد (ﷺ) لن يضر المؤمنين شيئاً ، فوحي الله على خاتم رسله يثبت القلوب المؤمنة، ويقيها مكر الماكرين، وحقد الحاسدين.

ويذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى : قل إن الهدى هدى الله ... إلى آخر الآية ... هو مما أمر به عليه السلام أن يقوله لأمته، والمعنى على هذا قل إن الهدى هو هذا الهدى الذي جئت به، وأن أحداً لن يؤتي مثل ما أوتي المسلمون من التوحيد الخالص، والتشريع الكامل، ومن يدعي سوى ذلك فليحاجوكم عند ربكم، أو أنّ «أو يحاجوكم» بمعنى التقرير والأزراء باليهود، كأنه قال : أو هل لهم أن يحاجوكم أو يخاصموكم فيما وهبكم الله وفضلكم به (١).

وتحتمل الآية (٢) أن تكون كلها خطاباً للمؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم، والتشحيذ لبصائرهم لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم، والمعنى على هذا لا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يؤتي أحد مثل ما أوتيم من الفضل والدين، ولا تصدقوا أن يحاجوكم في دينكم عند ربكم مَنْ خالفكم أو يقدر على ذلك فإن الهدى هدى الله، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فالأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، وله الحجة والحكمة البالغة، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

---

(١) أنظر المحرر الوجيز جـ٣ صـ١٧٣ .

(٢) أنظر تفسير القرطبي جـ٤ صـ١١٤ . طـ دار الكتب القطرية .

ومهما يكن من تباين في الرأي بين العلماء في تفسير هذه الآية حتى قال عنها الإمام القرطبي إنها أشكل آية في سورة (١) آل عمران، فإن ورودها في سياق الآيات التي تحدثت عن مواقف أهل الكتاب من اليهود والنصارى من الدعوة الإسلامية، وأنها تلتقي مع آية البقرة الأولى التي وردت فيها مادة « حج » بمعنى المنازعة والمخاصمة والتي سبق الحديث عنها في مستهل هذا البحث يرجح أن يكون معنى آية آل عمران هذه بياناً لبعض مواقف اليهود من محمد ودعوته، مواقف النفاق والمراوغة وكتمان الحقيقة، حقداً وحسداً واستئثاراً في زعمهم بفضل النبوة والمعرفة، حتى لا يبلغ مبلغهم أحد، وحتى لا يحاجهم المسلمون عند ربهم إن أفصحوا عما يعرفون عن صفة محمد في التوراة.

وبينت الآية مع هذا أن فضل الله سابغ يعطيه من يشاء، وأن الهدي الذي بعث به خاتم الأنبياء هو الهدي الذي يجب اتباعه وأن ما عداه باطل.

وكان لأخبار الرسول بحيل اليهود وتواطؤهم على الخداع والنفاق عدة آثار أهمها :-

أولاً : إن حيل اليهود في التظاهر بالإسلام ثم الكفر به لفتنة المؤمنين كانت من الأمور التي لا يعرفها سواهم، ومن ثم كان لأخبارُ الرسول بها إخباراً عن غيب، فيكون معجزة له، ودليل صدق على نبوته.

ثانياً : كان في الكشف عن حيل اليهود قضاء على أثرها في قلوب المؤمنين، ولولا هذا لربما كان لها بعض الأثر، وبخاصة لدى الضعاف منهم.

ثالثاً : إن اليهود لما افتضح أمرهم صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على وسائل الكيد والتلبيس والفتنة (٢).

ومن الإشارات التي تشتمل عليها أن الحق لا يرجع عنه من يعرفه مهما يتكالب عليه أهل المنكر والباطل بمختلف الوسائل، وأن من وافقك فيما تؤمن به وتعيش من أجله فهو أهل لمعاشرتك وسرك وأن من لا يوافقك في عقيدتك ومنهج حياتك فليس خليقاً بسرك ومرافقتك.

---

(١) أنظر تفسير القرطبي جـ ٤ صـ ١١٢.

(٢) أنظر محاسن التأويل، للقاسمي جـ ٤ صـ ٨٦٦ طـ القاهرة.

جـ - في سورة الأنعام :

وردت مادة « حج » بمعنى المنازعة والمخاصمة في سورة الأنعام مرتين في قوله تعالى : ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وهذه الآية تشير إلى بعض ما كان بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه، وكان هؤلاء من الكلدانيين بالعراق، وكانوا يعبدون الأصنام والكواكب والنجوم، وكانت المحاجة بين خليل الرحمن، وقومه، في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشرك.

وتدل الآيات (٢) التي جاءت قبل هذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام سلك مع أبيه وقومه في إبطال ماهم عليه أسلوب المناظرة والمحاورة، والأدلة الساطعة والبراهين الواضحة التي ذهلوا عنها، فما يعبدون من الكواكب والنجوم آفل زائل، أي متحول وخاضع في حركته لكل ما تخضع له مظاهر الطبيعة من سنن وقوانين، وهي لهذا لا تستحق صفة الألوهية، أو أن تكون خالقة أو معبودة ﴿ ۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٧٨) ﴾ (٣) .

وبعد أن تدرج مع قومه على هذا النحو في بيان فساد ما يعتقدون ، أعلن النتيجة التي انتهى إليها بقوله : ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٧٩) ﴾ (٤) .

ولكن قوم إبراهيم مع هذا ظلوا على كفرهم، وجادلوه وخاصموه في أمر التوحيد الذي قرره لهم، فقال رداً عليهم : أتحاجونني في الله، أي تجادلونني مجادلة صاحب الحجة في شأن الله تعالى وما يجب في الإيمان به، والاستفهام هنا إنكاري، فهو ينكر عليهم محاجتهم له، ويؤكد لهم أنه مستمسك بما يدعوهم إليه، ولا رجاء في العدول عنه ...

---

(١) الآية : ٨٠.

(٢) أنظر في الفكر والثقافة الإسلامية للدكتور عدنان زرزور صـ ٩٦ ط. المكتب الإسلامي.

(٣) الآيات : ٧٤ - ٧٨ في سورة الأنعام.

(٤) الآية : ٧٩ في سورة الأنعام.

ولجأ قوم إبراهيم إلى تخويفه من غضب آلهتهم عليه، بسبب موقفه منها وظنوا أنهم بهذا قد يحملونه على الرجوع عما ينادي به، ولكنه خيب أملهم وظنهم وقال لهم: لقد هداني الله إلى طريق الحق، ولا أخاف ما تشركون به فلا قدرة له ولا غناء عنده، إلا أن يشاء ربي شيئاً، أي أن كل أمر مرده إلى الله سبحانه، أحاط علمه بجميع الأشياء، أفلا تتذكرون، إي أفلا تعتبرون، وتدركون أن هذه الآلهة التي تعبدونها باطلة، وأنكم بعبادتكم إياها تقصرون في حق أنفسكم، ولا تنتفعون بنعمة العقل التي أنعم الله بها عليكم، وهو بهذا يستثير فيهم النظر الفكري الواعي، الذي يميز بين الحق والباطل، ويرفض الوثنية والشرك، ويأبى أن يعنو لمخلوقات لا تملك من أمر نفسها شيئاً.

ثم يخاطبهم بعد ذلك قائلاً لهم: أنيّ لكم أن تخيفوني من هذه الآلهة الباطلة، ولا تخافون أنتم من شرككم، وما تعبدون من أصنام أضفيتم عليها أنتم وآباؤكم من الأسماء ما لم يأذن بها الله ولم ينزل بها عليكم من سلطان، أي من حجة وبرهان، فأيُّنا أحق بالأمن وعدم الخوف، الذين اهتدوا وأخلصوا لله في الطاعة والعبادة، أو الذين ضلوا وأشركوا ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

لقد كان إبراهيم عليه السلام في جداله ومحاجته مع أبيه وقومه يحاور بمنطق العقل، ويلجأ إلى إفحام الخصم بلغة البرهان الساطع، والحجة الدامغة، ومن ثم وصفه(٢) بعض الفقهاء بأنه كان من أحج الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

على أن ما كان من خليل الرحمن مع قومه يعد أكبر حجة على المشركين من العرب، فأبوهم إبراهيم لم يكن مشركاً، ولا مقراً للشرك في قومه، كما يعد أعظم حجة لمحمد (ﷺ)، فقد جاء قومه بدعوة أبيهم فعليهم أن يؤمنوا بما جاءهم به، وإلا خالفوا سنة إبراهيم، وما جاز لهم أن يفخروا بالانتماء إليه ...

د - في سورة غافر:

وردت المادة في سورة غافر مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿ **وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار** ﴾(٣).

---

(١) الآية: ٨١ في سورة الأنعام.

(٢) أنظر المقدسات الممهدات لابن رشد الجد جـ١ صـ١٧ ط. دار الغرب الإسلامي.

(٣) الآية: ٤٧.

تعرض هذه الآية لنوع من الجدل والمحاجة والخصومة سيقع بعد البعث وبعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وهو جدل بين الضعفاء والمستكبرين، أي بين الطغاة الذين علوا في الأرض، والذين آثروا أن يكونوا أتباعاً لهم في الضلال والكفر.

وحكاية هذا الجدل الذي سيقع مستقبلاً فيه تحذير وتذكير بأن كل إنسان بما كسب رهين، وأن واحداً لن يغني عن أحد شيئاً مهما تكن درجة صلته به في الحياة الدنيا، وأن الذين انساقوا وراء الطغاة وكانوا ذيولاً وامعات ولم يفكروا ويتدبروا فيما يسمعون ويشاهدون من آيات الله البينات لن يخفف عنهم عذاب جهنم أنهم كانوا كالقطيع (١) يُساق بلا إرادة ولا اختيار، وأن تنازلهم عما وهبهم الله من نعمة العقل، وكرامة الحرية والاختيار لن ينجيهم من العقاب والعذاب، ولن يشفع لهم عند الله اتباعهم لسادتهم وكبرائهم، فهؤلاء قادوهم في الدنيا إلى الكفران، فقادوهم في الآخرة إلى النار وبئس المصير...

وإذ يتحاجون في النار، أي يتخاصمون ويتجادلون ويختلفون ويحاول الضعفاء أن يلقوا تبعة ماهم فيه من العذاب على الذين استكبروا، فقد أطاعوهم واتبعوهم فأضلوهم السبيل، فهل لهؤلاء المستكبرين أن يغنوا عن الضعفاء نصيباً من النار، أي أن يتحملوا عنهم قسطاً من هذا العذاب، ولكن الذين استكبروا وكانوا في الدنيا أهل شوكة ومنعة أصبحوا مع الضعفاء في العذاب، وحكم الله بينهم، أي قسم العذاب بقدر ما يستحقه كل منهم، وبذلك لا سبيل لأن يُغنوا عن سواهم شيئاً، ومن ثم يتوجه أهل النار جميعاً للخزنة يطلبون منهم أن يدعوا ربهم ليخفف عنهم بعض ماهم فيه، ويرد الخزنة على طلب أهل النار، بتذكيرهم بما أرسل الله إليهم من الحجج والبراهين على ألسنة الرسل والأنبياء، ويعترف أهل النار بما جاءهم من البينات والهدى، بيد أنهم أعرضوا عنه، فيقول الخزنة لهم لا ندعو لكم، فادعوا أنتم لأنفسكم، ولن يستجاب دعاؤكم، ولن يخفف عنكم العذاب ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (٢).

---

(١) انظر : في ظلال القرآن - مجلد ٧ صـ ٧٧.

(٢) الآيات : ٤٨ - ٥٠ في سورة غافر.

هـ - في سورة الشورى :

تعالج سورة الشورى قضية العقيدة كسائر السور المكية، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة، حتى ليصح أن يقال : إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها، وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لهذا المحور (١) .

وقد وردت مادة « حج » ثلاث مرات في هذه السور في آيتين متتاليتين (٢) هما : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ... ﴾ .

يقول ابن كثير عن الآية الأولى إنها تشتمل على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، ثم يقول : ولا نظير لها إلا آية الكرسي الواردة في سورة البقرة فهي مثلها عشرة فصول (٣) .

وأول تلك الكلمات أو الفصول أو الجمل الخطاب الموجه للرسول (ﷺ) ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ ﴾ أي فللذي أوْحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك فادع الناس إليه، وفي هذا إشارة إلى أن دين الله في أصوله ومبادئه الكلية واحد .

وثاني الكلمات الأمر بالاستقامة ﴿ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ ﴾ ولأنه عليه السلام كان مستقيماً فالأمر هنا بمعنى طلب الدوام، يقول ابن عطية : وهكذا الشأن في كل مأمور بشيء هو متلبس به إنما معناه الدوام . ويقول أيضاً : واستقم كما أمرت . جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوة (٤) .

وأما الجملة الثالثة ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ ﴾ فجاءت نهياً للنبي عن اتباع أهواء المشركين، فيما كانوا يطلبون منه أن يعظم آلهتهم أو أن يعبدها يوماً على أن يعبدوا إلهه يوماً، أو غير ذلك .

---

(١) انظر في ظلال القرآن مجلد ٧ صـ ٢٥٩ .

(٢) الآية : ١٥ - ١٦ .

(٣) أنظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٢٧٢ .

(٤) أنظر المحرر الوجيز ج ١٣ صـ ١٥٣ .

وهذه الجملة تأمر الرسول بدعوة المشركين إلى الحق وإن كرهوه ، وتنهاه في الوقت نفسه عن أن يستجيب لما يريد هؤلاء المشركون ، فهم لن يرضوا حتى يتبع ملتهم ، ويتخلى عما يدعوهم إليه .

والجملة الرابعة ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ اعلان صريح عن وحدة الرسالة الإلهية ، ووجوب التصديق بكل ما أنزل الله من كتب ، فالمسلم من ثم لا يفرق بين أحد من رسل الله ، وإيمانه لا يكمل أو لا يصح إذا فرق في الإيمان بينهم ، أو لم يصدق بما أنزل عليهم .

ولأن الإسلام دين العدل المطلق مع الجميع أومأت الجملة الخامسة إلى هذا ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ فلا جور ولا ظلم وإنما هو العدل الشامل الذي يسمو فوق الأشخاص ، والذي يقر الحقوق لذويها مهما تكن منازلهم الدنيوية أو عقائدهم الدينية .

وتؤكد الجملة السادسة وحدانية الله وربوبيته ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فهو رب الجميع لا إله غيره ولا معبود سواه ، وربوبية الله للإنسان ثابتة قائمة سواء اعترف بها أو لم يعترف وسواء أشرك فيها أو لم يشرك ، فكل من في السموات والأرض عبد لله طوعاً وإجباراً ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (١) .

وأما الجملة السابعة ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ فهي تقرر المسئولية الفردية وتومىء إلى أن كل انسان بما كسب رهين . كما تومىء إلى أن الطاعة والمعصية متناقضان ولا يلتقيان .

وجاءت الجملة الثامنة ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ لتشير إلى ما كان بين المؤمنين والمشركين من خصومة ومنازعة ، ويفسر نفي الحجة في الآية على وجهين (٢) : أن يكون نفي جنس ، يراد به نفي المجادلة التي من شأنها وقوع الاحتجاج ، وهذا كناية عن عدم التصدي لخصوم المؤمنين ، فالحق ظاهر ، وهؤلاء الخصوم مكابرون ومن ثم لا يكون للجدال معهم جدوى ، والأولى الإمساك عن جدالهم .

أو أن يكون المراد بالنفي ليس نفي جنس ، وإنما هو نفي للجدال المفيد ، بمعنى أن الاستمرار على الاحتجاج مع المشركين بعد ما ظهر من الأدلة يكون من العبث ، وهذا تعريض بأنهم مكابرون ومضللون .

---

(١) الآية : ٩٣ في سورة مريم .

(٢) أنظر التحرير والتنوير ج ٢٥ صـ ٦٣ .

وعلى كلا الوجهين فالحجة تعني الخصومة والمجادلة بين المؤمنين والمشركين، وأن هؤلاء في جدالهم مكابرون ومراوغون.

وتقرر الجملتان التاسعة والعاشرة أن الله يجمع بين الخلائق يوم القيامة ليفصل بينهم، فإليه المرجع والمآب يوم الحساب، ﴿ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

وفي التذكير بالحشر وقضاء الله فيه تحذير للمشركين من عنادهم واصرارهم على الكفر والضلال، كما أن فيه تسليةً للمؤمنين الذين أوذوا في سبيل الله، فسيقضي بينهم وبين أعدائهم بالحق يوم الدين ...

إن هذه الآية تكشف (١) بجملها أو كلماتها عن طبيعة الرسالة الخاتمة، إنها رسالة عامة جاءت لتمضي في طريقها لا تتأثر بأهواء البشر، وجاءت لتوحد الطريق إلى الله، كما هو في حقيقته موحد على مدى الرسالات.

وبعد وضوح طبيعة الرسالة على هذا النحو واستجابة المؤمنين لله هذه الاستجابة يبدو جدل المجادلين في الله مستنكراً لا يستحق الالتفات، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب، وعن هذا الجدل الباطل تحدثت الآية الثانية : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴾.

لقد توعد الله في هذه الآية الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به **﴿والذين يحاجون في الله﴾** أي يجادلون في دينه الذين آمنوا، واستجابوا له، إنهم يمارون في الحق، ويسعون لزعزعة اليقين، وزرع الشك في قلوب المؤمنين، بيد أن ما يتذرع به المبطلون من حجج للصد عن سبيل الله لا جدوى فيه، فهي حجج داحضة، أي باطلة زائلة وأطلق على شبهات أهل الضلال والفساد اسم الحجة من باب التهكم والسخرية، فليست في الحقيقة برهاناً صحيحاً أو دليلاً مقبولاً، وإنما هي أكاذيب وافتراءات ولذلك وصفت بالدحوض عند الله، أي بالبطلان (٢)، والفساد.

وسواء أكان سبب نزول الآية هو موقف اليهود والنصارى من المسلمين أم موقف الجاهلية منهم فإن الآية بمنطوقها تتحدث عن ضلال أهل الشرك وإصرارهم على محاربة أهل التوحيد والإيمان، وأنهم في هذه الخصومة لا يَدَعون وسيلة يظنون أنها تكفل تحقيق ما

---

(١) أنظر في ظلال القرآن مجلد ٥ صـ ٣١٥.

(٢) أنظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٢٧٣.

يريدون إلا أخذوا بها، وسارعوا إليها، ولكن الظهور والانتصار في النهاية للحق وأهله والخذلان والخسران للباطل وأتباعه، أولئك الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وهم لهذا قد غضب الله عليهم، وأعد لهم يوم القيامة عذاباً شديداً.

و - في سورة الجاثية :

وردت المادة في هذه السورة مرة واحدة في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١).

وتأويل هذه الآية مرتبط بآية سبقتها وأخرى ذكرت بعدها، والآيات الثلاث تتحدث عن موقف الدهريين والمشركين الذين ينكرون البعث والمعاد ويقولون: إنما هي حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، فهم يزعمون أنه لا حياة إلا هذه الدار الفانية، يموت قوم ويعيش آخرون، ومرور الأيام هو الذي يهلك الناس، فلا معاد ولا قيامة. ويرد عليهم الكتاب العزيز بأن ما يذهبون إليه أوهام وخيالات لا تستند إلى علم أو معرفة، وذلك أن مرور الأيام لا علاقة له بموت أو حياة، فها نحن نرى أطفالاً يموتون كما يموت الشيوخ والكهول، فليس الدهر أو طول الزمان سبباً في الموت، فالدهريون بما يظنون ملاحدة ومشركون ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢).

وهؤلاء الذين يتخرصون ويظنون ولا يوقنون بما يقولون، فليست لديهم أثارة من علم عليه إذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه لم يعارضوها بما يبطلها، بل يهرعون إلى المباهته فيقولون إن كان البعث حقاً فأتوا بآبائنا إن كنتم صدقتم، فالمراد بالآيات هنا آيات القرآن المتعلقة بالبعث والنشور والثواب والعقاب، وقولهم ما كان حجتهم، أي ما كان جدالهم ومنازعتهم وخصامهم، وهو قول لا يعبر عن حجة بينة، وإنما يعبر عن تلجلج وخلل في التصور، والمحاجة والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث (٣).

إن الموت والحياة يخضع كلاهما لسنة محكمة فاقتراح هؤلاء أو طلبهم يدل على حماقة وجهالة، فلماذا يأت الله بآبائهم قبل الموعد الذي قدره، وفق حكمته العليا لكي يقتنعوا

---

(١) الآية : ٢٥.

(٢) الآية : ٢٤ في سورة الجاثية .

(٣) أنظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ صـ ٣٦٤.

بقدرة الله على إحياء الموتى، وأمام أعينهم ينشىء الله الحياة في كل لحظة ؟ إنه العناد والمكابرة واللجاجة والحجة الداحضة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فهؤلاء المبطلون الجاحدون ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد وغفلوا عن أن الحق بدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه ...

ثانياً : البينة والبرهان

جاءت مادة « حج » بمعنى البينة والبرهان في كتاب الله ثلاث مرات : مرة في النساء : ومرتين في الأنعام .

أ - في سورة النساء :

وردت في هذه السورة آية اشتملت على مادة « حج » بمعنى البينة والبرهان ، وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ (١) .

وهذه الآية سبقت بآيتين ، تحدثت الأولى منهما عن وحي الله إلى محمد (ﷺ) ، وإلى نوح والنبيين من بعده ، وأشارت الآية الثانية إلى أن القرآن الكريم قص على خاتم الأنبياء أخبار بعض المرسلين ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

بعد هاتين الآيتين وردت تلك الآية لتبين الحكمة من إرسال الرسل ، فقد بعثوا مبشرين ومنذرين ، بعثوا مبشرين بالجنة من آمن بالله وأطاعه ، ومنذرين بالنار من كفر وعصى وجاء قوله تعالى : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ تعليلاً لهذا الإرسال ، فالحكمة من بعث الأنبياء قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل وعدم معرفة ما يجب عليهم نحو خالقهم عندما يحاسبهم الله يوم الدين ، ويقضي بعذابهم .

إن إرسال الرسل من تمام عدل الله وفضله ، حتى لا يبقى لمعتذر عذر ، أو لكافر حجة ، والحق بفضله وعدله لا يؤاخذ الناس بمخالفة ما جاءت به الرسل إلا بعد البلاغ والانذار ، فمن لم تصله الدعوة فلا تثريب عليه ، وإنما يقع الإثم على من بلغته وقصر في تبليغها إلى غيره ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الآية : ١٦٥ .

(٢) الآية : ٥٩ في سورة القصص .

(٣) الآية : ٢٠٨ في سورة الشعراء .

إن الله العزيز الحكيم قد كرم الإنسان أعظم تكريم، فقد أنعم عليه بالخلافة في الأرض، وسخر له الكون، وهداه النجدين، ومع هذا لم يدعه إلى نفسه، وإنما تفضل عليه فأرسل إليه الرسل تترى بالآيات والدلائل التي تبين الحق من الباطل، حتى إذا أخذ بعد ذلك المكذبين والضالين بعذاب لم يكن لأحد حجة يدافع بها عن نفسه، ولا عذر يتذرع به للإفلات من عقاب ربه ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ .(١)

ب - في سورة الأنعام :

وردت المادة في هذه السورة مرتين، جاءت الأولى في قوله تعالى : ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ (٢).

هذه الآية التي تحدثت عن الحجة التي منحها الله لإبراهيم عليه السلام حتى حجَّ قومه فيما جادلوه فيه، جاءت بعد عدة آيات ذكر القرآن فيها طرفاً من موقف خليل الرحمن من أبيه وقومه، وكيف بين لهم في أسلوب منطقي أن ما يعبدون من دون الله آفل زائل، فليس أهلاً للتقديس والعبادة، وأن عليهم أن يفكروا ويتدبروا، وألا ينساقوا وراء أوهامهم وظنونهم ومواريثهم الفاسدة، وقد سبق الحديث عن هذا الموقف.

وكلمة « حجتنا » وقد أسندت إلى الحق تبارك وتعالى، تشير إلى أن الله ينصر رسله ويؤيد أنبياءه، بالبراهين الساطعة والحجج الدامغة، كما تشير إلى أن على كل داعية لخير ومعروف واصلاح أن يلجأ إلى الله يسأله التوفيق والسداد، وأن عليه مع هذا أن يتخذ كل أسباب الذود عن رسالته بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة أولاً، ثم باليد والقوة إذا اقتضى الأمر ذلك

على أن كلمة حجتنا تشمل كل ما احتج به إبراهيم على قومه، وكل ما أخذ به من أدلة وبراهين للدفاع عن عقيدته، وإبطال دعاوى الشرك والوثنية.

والآية في ختامها تشير إلى منزلة إبراهيم عليه السلام، وأن الحق تبارك وتعالى رفع درجته وأعلى مكانته، وهو سبحانه حكيم في أقواله وأفعاله، عليم بكل شيء، عليم بمن يجاهد في الله فيكون أهلاً للهداية والإيمان، وعليم بمن يزور عن طريق الحق، ويضيق بنداء الخير فيشقى بضلاله ولا تجديه البراهين والحجج.

---

(١) الآية : ١٣٤ في سورة طه.

(٢) الآية : ٨٣.

ووردت المرة الثانية لمادة « حج » بمعنى البينة في سورة الأنعام في قوله تعالى ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

هـذه الآية التي بُدئت بأمر موجه إلى رسول الله (ﷺ) جاءت رداً على مزاعم المشركين، وادعائهم أنهمَ لا يُسألون عما هم فيه من شرك ، لأن تركهم على شركهم تقرير من الله لحالهم، ولو شاء غير ذلك لما تركهم على تلك الحال ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾(٢) .

إن المشركين كما أومأت الآية يحيلون شركهم هو وآباؤهم، وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله ، وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل يحيلون هذا كله على مشيئة الله ، فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا ما حرموا ... ! (٣) .

ولكن القرآن يفند مزاعم المشركين، فهم يلقون القول عن ظن وتخمين دون علم ويقين، إنهم يتبعون فيما يدعون الكذب كما فعل الذين من قبلهم، كذبوا حتى ذاقوا بأس الله ، أي عذابه .

إن الله خلق الإنسان، وأنعم عليه بنعمة العقل والتمييز، وهو بهذا يملك حرية الاختيار والإرادة فيما أمره الله به ونهاه عنه، ومن ثم كان مكلفاً ومسئولاً، ولا يتعارض ذلك مع الاعتقاد بأن قدرة الله فوق قدرة الإنسان، ولها وحدها السلطان الأعلى في إتمام مراد العبد بإزالة الموانع، أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته(٤) .

إن آفة الآفات أن يترك الإنسان ما يعلمه علم اليقين، ويخوض فيما هو غيب لا يدري عنه شيئاً، فالله سبحانه أمر ونهى، وأوامر الله ونواهيه واضحة معلومة للإنسان، ويدرك ما ترمي إليه، وتحض عليه، فينبغي أن يذعن لها وإلا تحمل مسئولية الإعراض عنها أو عدم الإيمان بها، وهو في هذا حر الإختيار ولا يكره على مالا يريد، فقد هداه الله النجدين، فإذا عصى وأحال عصيانه على مشيئة الله فقد كذب، لأنه لا علم له بها، فهي أمر غيبي، فالشرك بما يدعيه يتخرص ويظن ، والظن أكذب الحديث .

---

(١) الآية : ١٤٩ .
(٢) الآية : ١٤٨ في سورة الأنعام .
(٣) أنظر في ظلال القرآن مجلد ٣ صـ ١٢٢٧ .
(٤) أنظر رسالة التوحيد للإمام محمد عبده صـ ٦٤ طـ. مكتبة القاهرة بالقاهرة ١٣٧٩ هـ.

وقد جاءت الآية التي اشتملت على مادة « حج » بعد هذه الآية التي سجلت على المشركين افتراءهم لترد على تلك المزاعم الفاسدة، وتبين أن لله الحجة البالغة، أي الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقدرة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه(١).

يقال : حجة بالغة، وحكمة بالغة، ويمين بالغة، أي واصلة إلى نهايتها من القوة.

وهذه الحجة البالغة تشمل كل ما بينه الله في كتابه من أصول العقائد وقواعد الشرع، وما وجه إليه نظر الإنسان من التدبر والتفكر في كل ما خلق الله، فهذا كله أبلغ برهان على وحدانية الحق، وعلى صدق الرسل، وعلى مسئولية البشر أمام خالقهم، ولو شاء سبحانه لهدى الناس جميعاً، أي لسلبهم إرادة الاختيار، وحرية الاعتقاد، وأكرههم على الإيمان، ولكن حكمته البالغة اقتضت أن يكون الإنسان المكرم صاحب إرادة وحرية ومسئولية، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد...

---

(١) أنظر تفسير الألوسي جـ٨ صـ٥١ طـ. مكتبة دار التراث، القاهرة.

ثالثاً : السنوات

جاءت مادة « حج » بمعنى السنين، أو السنوات مرة واحدة، وذلك في قول الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (١).

سبق في الحديث عن بعض آيات سورة الأنعام أن الله قص في كتابه الكريم على رسوله الخاتم محمد (ﷺ) أخبار بعض الأنبياء وللقرآن منهجه الخاص في عرض القصص ليس هنا مجال الحديث عنه، ولكن الذي ينبغي التذكير به أن القصة القرآنية ترد غالباً مفرقة في أكثر من موضع، وأنها لا تعرف التكرار، وأنها حقيقة تاريخية، فما كانت حديثاً يفترى، وأنها سيقت في الكتاب العزيز للعبرة بالدرجة الأولى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

وفي آية القصص التي وردت فيها مادة « حجً » بمعنى السنين حديث عن جانب من قصة موسى عليه السلام قبل أن يوحى إليه أو قبل أن يبعث، فقد أخبر القرآن أن هذا النبي شب بمصر في بيت فرعون، وكان قوي البأس وافر القوة، وقد أتاه الله الحكمة والعلم، ومن ثم أخذ قبل بعثته يبدي لفرعون وملأه ما يكرهون، ولا يقرهم على ما يقترفون، وذات يوم دخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يتنازعان ويتضاربان، أحدهما من شيعته، أي من أنصاره وأوليائه، والثاني من عدوه، فطلب الذي من شيعته من موسى أن ينصره على عدوه فوكزه، أي طعنه بجُمْع كفيه، أو بكفيه المضمومتي الأصابع فكان في هذا هلاكه، وما كان موسى يريد قتل الرجل، ولهذا ندم على ما فعل وعزاه إلى الشيطان الذي هو عدو مضل للإنسان، وتوجه إلى الله مقراً بأنه ظلم نفسه، وطلب منه أن يغفر له، وعاهده على ألا يكون معيناً للمجرمين.

وأصبح موسى بعد قتل ذلك الرجل في المدينة خائفاً يترقب، فمر وهو يعاني من هذا الخوف الدائم الذي ملك عليه نفسه بمن استغاث به بالأمس، وكان في نزاع وصراع مع عدو له، فاستصرخ موسى، أي صاح به مستغيثاً لينصره على عدوه، بيد أن موسى لم يستجب لما طلب منه، وقال لمن استصرخه : إنك لغوي مبين.

---

(١) الآية : ٢٧ ، ٢٨ في سورة القصص.

(٢) الآية الأخيرة في سورة يوسف.

ويبدو مع هذا أن موسى كان يود أن يأخذ عدو الذي من شيعته بعنف وشدة، ولكنه لما دنا من الرجلين ظن الذي استغاث به أنه يريد قتله لما يعرف من بأسه وقوته، فقال: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. وقد قال هذا، لأنه الوحيد الذي يعرف من الذي قتل خصمه بالأمس.

وكان هذا الموقف من الاسرائيلي الذي انتصر له موسى سبباً في أن يشيع في المدينة أنه هو الذي قتل القتيل، واهتبلها فرعون فرصة لقتل موسى لا قصاصاً وإنما رغبة في التخلص منه، بسبب حديثه عن طغيان فرعون وجنوده.

وشاءت إرادة الله أن ينقذ نبيه من كيد الطغاة والمفسدين، فقد جاءه رجل من أقصى المدينة مسرعاً بعد أن عرف بما يدبر له، وحذره مما يأتمر به الملأ، ونصحه بأن يخرج من المدينة حتى لا يقتل، وسمع موسى النصيحة، وخرج خائفاً، ودعا الله أن يخلصه من القوم الظالمين...

وكان خروج موسى على عجل، فلم يتزود للطريق، ولم يعد للسفر عدته وتوجه منفرداً تلقاء مَدْين (١)، فلما ورد ماءها وجد عليه جمعاً كثيراً من الناس يسقون ماشيتهم، ووجد اَمرأتين من دون هذا الجمع تمنعان وتدفعان أغنامهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء، فرق لهما، وسألهما عن أمرهما فقالتا لا نسقي إلا بعد فراغ هؤلاء، فسقى لهما ثم جلس تحت ظل شجرة، وهو مجهد قد اشتد به الطوى...

ولما عادت المرأتان إلى أبيهما الشيخ أنكر تبكيرهما بالعودة على خلاف شأنهما كل يوم، وسألهما عن سبب ذلك فأخبراه بما كان من الرجل الذي سقى لهما (٢)، فأرسل إحداهما إليه، فجاءت إلى موسى تمشي في خفر، وقالت له: إن أبي يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا، فلما جاءه وقص عليه ما جرى له في مصر مع فرعون قال الشيخ: لا تخف نجوت من القوم الظالمين... وهنا عرضت إحدى المرأتين على أبيها أن يستأجر موسى، فهو خير من يُستأجر، لقوته وأمانته واطمأن الشيخ إلى رأي ابنته فعرض على موسى أن يزوجه إحدى بنتيه على أن يعمل عنده ثماني حِجج فإن أتم عشراً فمن عنده، وقبل موسى عرض الشيخ

---

(١) تقع بلاد مدين حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية، وشمال الحجاز وجنوب فلسطين (وأنظر قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار صـ ٢٣١ طـ. بيوت.

(٢) أنظر المصدر السابق.

وشرطه، وقال له : هذا بيني وبينك، أي الأمر على ما قلت، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ؛ أي فلا حرج، أوبرئت من العهد، وخرجت من الشرط، والله على ما نقول وكيل ...

فكلمة « حجج » وهي جمع « حجة » بمعنى السنين، ولم ترد في الكتاب بهذا المعنى إلا في آية القصص، وبين المفسرين اختَلاف حول ما جاء في هذه الآية وما يستنبط منها.

وأول ما اختلف فيه المفسرون (١) اسم الشيخ أو والد المرأتين، فمنهم من يرى أنه شعيب عليه السلام، ومنهم من يذهب إلى أنه ابن أخي شعيب، وهناك من يرى غير ذلك، والراجح تفويض العلم باسمه إلى الله العلي القدير، قال الإمام الطبري : وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قال الله جل ثناؤه (٢) ...

كذلك اختلف العلماء (٣) فيمن تزوجها موسى، هل التي أرسلت إليه لتدعوه إلى أبيها أو الأخرى؟ وهل هي الصغرى أو الكبرى ؟

ومادام القرآن لم يعين من تزوجها موسى، ولم يرد خبر يعول عليه في هذا، فإن الأولى ألا نشغل أنفسنا لنعرف المرأة التي تزوجها، فلا يترتب على معرفتها كبير جدوى، ولا يؤدي الجهل بها إلى نقص في الوقوف على عبرة ما قصه الله حول هذا النبي

وعن أي الأجلين قضى موسى يرجح المفسرون أنه قضى خيرهما أو أكملهما وأوفاهما وهو عشر سنوات ...

ولكن هل هذه السنوات التي قضاها موسى أجيراً لدى والد المرأتين كانت مهراً لمن تزوجها أو أنها كانت شرطاً للزواج ؟

من الفقهاء من يرى أن المنافع يصح أن تكون مهراً ما دامت لها قيمة تقدر بمال، ومنهم من يذهب إلى أنها لا يصح أن تكون مهراً، ويذهب آخرون إلى جواز أن تكون مهراً مع الكراهية ... (٤)

وإذا كان المهر في الإسلام حقاً للمرأة على الرجل، وإن لم يكن شرطاً في صحة عقد

---

(١) أنظر مختصر تفسير ابن كثير مجلد ٣ صـ ١٠ .

(٢) تفسير الطبري جـ ٢٠ صـ ٤٠ طـ الأميرية - القاهرة.

(٣) انظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ١٠ .

(٤) أنظر أحكام القرآن لابن العربي جـ ٣ صـ . ١٤٧ ، طـ ، دار المعرفة . بيروت .

الزواج أو نفاذه، وإذا كان في جوهره رمزاً للتعبير عن رغبة الرجل في المرأة وليس ثمناً لشيء كما يعبر البعض فإنه كما يصح أن يكون مالاً متقوماً يجوز أن يكون منفعة للزوجة ولو كان في صورة خدمة بشرط ألا تتنافى هذه الخدمة مع كرامة الرجل، ومنزلة القوامة التي جعلها الله للرجال على النساء...

ولا سبيل للجزم بأن السنوات التي قضاها موسى أجيراً لدى والد المرأتين بأنها كانت مهراً أو شرطاً وإن كان ظاهر الآية يرجح أنها كانت مهراً...

ويستنبط بعض الفقهاء (١) من قصة موسى مع والد المرأتين أنه يجوز لولي المرأة إن كانت بكراً إكراهها على الزواج، فأمره إليه، ويذهب آخرون إلى أن حديث هذه القصة لا يدل على جواز أن يكره الولي المرأة على الزواج، وكل ما يدل عليه أن الوالد بفراسته رأى في موسى نعم الزوج لأحدى بنتيه، فعرض عليه الزواج، وهو لا يعني سلب حرية المرأة في الاختيار، فضلاً عن أن النصوص النبوية وهي مفسرة لما يحتاج من آيات القرآن إلى بيان تحض على استئذان المرأة وعدم إكراهها على التزوج بمن لا ترضاه، وهذا هو الراجح.

كما يستنبط الفقهاء أيضاً من قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ ﴾ أن المرأة، وإن كانت إسلامياً في مركز المطلوب دون الطالب بالنسبة للرجل فإن من السنة الحميدة أن يعرض وليّ المرأة أو المرأة نفسها على الرجل الصالح، وليس في هذا ما ينال من كرامة الولي، أو يضع من مكانة المرأة، فقد عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الواهبة نفسها على النبي (ﷺ)، فقد روى عن أنس أن امرأة جاءت إلى النبي (ﷺ) فقالت: «يا نبي الله هل لك فيّ حاجة؟ فقالت: ابنة أنس عن هذه المرأة: ما كان أقل حياءها. فقال لها أبوها: هي خير منك رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها»(٢).

ولنا في هذا السلف خير أسوة، ولا ينبغي أن تحكمنا أعراف وتقاليد تحول بيننا وبين الاقتداء بسلفنا الصالح في كل شيء...

* * * * *

---

(١) أنظر تفسير القرطبي جـ١٣ صـ٢٧٣.

(٢) رواه البخاري وأحمد.

■ تعقيب ■

يتضح من الحديث عن الآيات التي وردت فيها مادة « حج » بمعانيها المختلفة أن أكثر ورود هذه المادة كان بمعنى التنازع والتخاصم، وأن ما جاء منها بمعنى البرهان والبينة يدور في نطاق إثبات أدلة الوحدانية والمسئولية الفردية، وأن أهل الشرك والوثنية حجتهم في هذا داحضة.

وتنقسم مادة « حج » بمعنى التنازع والتحاج من حيث الزمان ثلاثة أقسام :

أولاً : محاجة وقعت قبل عصر البعثة.

ثانياً : محاجة كانت في عصر البعثة.

ثالثاً : محاجة ستقع بين أهل النار بعد يوم النشور.

أما ما كان قبل عصر البعثة من مجادلة ومنازعة، فقد جاء طرف منه مما وقع بين إبراهيم عليه السلام وقومه، حيث قص علينا القرآن الكريم قصة الذي حاج إبراهيم في ربه وادعى أنه إله، وأنه يحيي ويميت، وكيف انتهى أمر هذا الدعي في هذه المحاجة بالخذلان والبهتان...

كذلك قص علينا القرآن موقف إبراهيم من أبيه وقومه حين دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام والكواكب والنجوم، وكيف بين لهم أن ما يعبدون من دون الله لا يمكن في منطق العقل أن يكون إلهاً، وماذا كان من قومه إذ حاجوه وخاصموه، وخوفوه آلهتهم، ولكن إبراهيم - وقد هداه الله - لم يلق بالاً لمحاجتهم، ولا لتخويفهم، فقد أسلم وجهه لله حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين...

وكانت المحاجة في عصر البعثة نوعين : نوعاً كان بين النبي (ﷺ) وأهل الكتاب حول إبراهيم وعقيدته، وعيسى وبشريته، والنوع الثاني من المحاجة ما كان من أهل الكتاب والمشركين عامة حول نبوة محمد (ﷺ)، والدين الذي أرسل به، وكانت أهم القضايا التي تناولها هذا النوع قضية الوحدانية والبعث وتحويل القبلة، ويدخل في هذا النوع أيضاً ما كان يجري بين اليهود من الكيد للإسلام وفتنة المؤمنين به، وتحريض بعضهم بعضاً على كتمان ما يعرفون عن محمد، وما جاء عنه في التوراة.

والمجادلة التي ستقع في المستقبل ستكون بعد أن ينتهي الحساب يوم الدين، ويدخل

أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، حيث يختصم أهل النار، ويلقى الأتباع على الرؤساء مسئولية ما هم فيه من العذاب، ويطلبون منهم أن يتحملوا عنهم شيئاً مما يكابدون منه، بيد أن الرؤساء يتبرأون من أتباعهم ولا يجدي هذا الخصام الجميع، فقد حكم الله بينهم، وصدق الحق في كتابه الحكيم إذ قال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (١) ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ (٢).

وهذه المجادلات والمحاجات والخصومات وإن اختلفت من حيث الزمان تلتقي جميعها حول معنى واحد، وهو الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر والخير والشر، فكلها تدور حول الوحدانية وتصديق الأنبياء، والمسئولية الفردية أمام فاطر الأرض والسماء.

وما سجله القرآن من مجادلات ومحاجات وقعت أو ستقع، وإن كانت حقيقة تاريخية لا امتراء فيها، أو إخباراً بغيب لا ريب فيه، فهو في المقام الأول تذكير وعبرة وارشاد إلى أن الحق في كل زمان ومكان يواجه من يتطاول عليه، ويكيد له، وأن الإيمان لا يسلم من عداوة الشيطان والكفران، وفي ذلك تنبيه لأهل الحق، وحزب التوحيد لأن يعتصموا بما يوقنون به، وأن يعدوا أنفسهم دائماً لمواجهة الباطل والمنكر في كل عصر، فالجهاد ماض إلى يوم القيامة، حتى تظل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وأما ورود المادة بمعنى الحجة فإنها إذا أسندت إلى غير الله كانت بمعنى المنازعة والمماراة، وقد تحتمل معنى البرهان بحسب اعتقاد الكفار، ولكن إذا أسندت الحجة إلى الله فهي بمعنى الدليل الصحيح والبرهان الصادق، ومن ثم قد تكون صحيحة، وقد تكون باطلة، لأنها مأخوذة من مَحَجَّة الطريق، فكل ما يتخذه الإنسان مسلكاً لنفسه في إثبات أمر أو إبطاله فهو حجة بصرف النظر عن الصحة وعدمها في هذه الحجة ... (٣)

---

(١) الآيتان: ١٦٦، ١٦٧ في سورة البقرة.

(٢) الآية: ٦٤، في سورة ص.

(٣) أنظر تفسير الفخر الرازي جـ٤ صـ١٥٧، ط. القاهرة.

ويستدل من جملة ما جاء في الكتاب العزيز عن مادة « حج » أن الإسلام دين النظر الواعي ، والتفكير السليم ، والجدل بالتي هي أحسن ، أي الجدل الذي لا يعرف المخاتلة والمراوغة ، لأنه جدل يتوخى الحقيقة في إنصاف ، وكانت آفة المشركين في جدالهم أنهم يراوغون ويفترون ، ولو كانوا حقاً يسعون للوقوف على الحق لكان جدالهم منطقياً ، وحوارهم علمياً ، ولأراحوا أنفسهم وغيرهم من ذلك الحوار العقيم .

إن أخطر ما يحول بين الباحث عن الحق أن يتعصب لما يؤمن به ، وألا ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية بعيداً عن التقليد أو الأهواء ، لأنه في هذه الحالة لن يزداد إلا بعداً عن الحق واغراقاً في الباطل ، كما أن من أخطر ما يواجه هذا الباحث أن يهجم على ما لا علم له به ، أو يتشبث بالظنون والأوهام ويبني عليها ما يشاء من الآراء والأحكام ...

والإسلام بتوجيه العقل وجهة سديدة في البحث والنظر كان دين الحضارة والتقدم وكان دين العلم والمعرفة ، ولهذا كان انقاذاً للبشرية من دياجير التخلف والهمجية كما كان انقاذاً لها من براثن الشرك والوثنية .

وحديث القرآن عن مادة « حج » بتلك المعاني يؤكد أنه كتاب لغة وتشريع فلولاه لاندرست العربية في بلاد كثيرة ، ومن أجله وفي سبيل فهمه نشأت علوم وقامت في الوطن الإسلامي نهضة علمية رائعة ...

* * *